الفصل الثاني عشر
الطب والنبات

ف١٣٥- أوائل الأطباء.

ف١٣٦- كتاب ديوسقوريديس في الأندلس.

ف١٣٧- أبو القاسم الزهراوي. ابن وافد.

ف١٣٨- ابن رشد، بنو زهر، ابن العوّام

ف١٣٩- أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي.

ف١٤٠- ابن البيطار.

ف١٣٥- أوائل الأطباء

أزهر علم الطب إزهارًا عظيمًا بين مسلمي الأندلس. ويحدثنا المؤرخون أن يونس بن أحمد الحراني[1] وفد على الأندلس من المشرق في إمارة محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢/٢٣٧-٨٨٦/٢٧٢) واستقر هناك؛ وأن عمر بن حفص بن برتق درس في القيروان على ابن الجزار - أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني[*] - (في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي)، وأخذ عنه كتاب «زاد المسافر» (في علاج الأمراض)، وهو كتابه الرئيسي، وهو الذي أدخله إلى الأندلس[*]. ومن أطباء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق محمد بن عَبْدون الجَبلي، [«رحل إلى المشرق سنة ٩٥٨/٣٤٧، ودخل البصرة ومصر ودبّر مارستانيهما، وتمهّر في الطب ونبُل فيه وأحكم كثيرًا من أصوله.

وعانى صناعة المنطق عناية صحيحة. وكان شيخه فيها أبا سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني البغدادي، ثم رجع إلى الأندلس سنة ٩٧١/٣٦٠ فخدم المستنصر بالله والمؤيد بالله في الطب. وكَانَ - قبل أن يتطبب - مؤدبًا في الحساب والهندسة، وله في التكسير كتاب حسن»][*][2]. ومنهم كذلك الكرماني، أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي.

ومن النباتيِّين الذين تذكرهم الكتب حمدين بن أبان[*]، [«وكان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان طبيبًا حاذقًا مجرِّبًا، وكان صهر بني خالد،

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج٢، ص٣٧.

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج٢، ص٤٥.

(*) صاعد: طبقات الأمم، ط. السعادة، ص ١٢٤ -١٢٥.

(*) في الأصل حمديس، والتصحيح من ابن أبي أصيبعة. انظر: طبقات الأطباء، جـ٢، ص٤٢.

وله بقرطبة أصول ومكاسب. وكان لا يركب الدواب إلا من نتاجه، ولا يأكل إلا من زرعه، ولا يلبس إلا من كتان ضيعته، ولا يستخدم إلا بتِلاَدَه من أبناء عبيده»[(*)(٣)]؛ وحَواد الطبيب النصراني (٢٠٧/٨٢٢ -٢٧٢/٨٨٦)، [«وكان في أيام الأمير محمد، وله اللعوق المنسوب إلى جواد، وله «دواء الراهب» والشرابات والسفوفات المنسوبة إليه وإلى حمدين وبني حمدين، كلها شجارية»[(*)(٤)]؛ وخالد بن يزيد بن رومان النصراني، [«كان بارعًا في الطب ناهضًا في زمانه فيه. وكان بقرطبة، وسكنه عند «بيعة سبت أجْلَخ». وكانت داره المعروفة بدار ابن الشُطَجيرِي الشاعر، وكسب بالطب مبلغًا جليلاً من الأموال والعقار، وكان صنَّاعًا بيده، عالمًا بالأدوية الشجارية.

وظهرت منه في البلد منافع. وكتب إليه نسطاس بن جريج الطبيب المصري رسالة في البول. وأعقب خالد ابنًا سماه يزيد، ولم يبرع في الطب براعة أبيه»[(*)(٥)]. وكان سعيد بن عبد ربه - ابن أخي أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب «العقد» - طبيبًا ذا شهرة، قال عنه صاعد: «كان طبيبًا نبيلاً وشاعرًا محسنًا. وله في الطب رجز جليل محتوٍ على جملة حسنة منه، دل به على تمكنه في العلم وتحققه بمذاهب القدماء. وكان له مع ذلك بصر بحركات الكواكب ومهاب الرياح وتغيير الأهوية... »[(*)(٦)].

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج٢، ص٤٢.

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج٢، ص٤١.

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج٢، ص٤١

(*) صاعد: طبقات الأمم، ص١٢١-١٢٢.

ف١٣٦- كتاب ديوسقوريدس في الأندلس

في سنة ٣٢٧/ ٩٤٨-٩٤٩ أرسل إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع -المعروف ببوروفيروجينيت، أي لابس الأرجوان[٧] - سفارةً إلى عبد الرحمن الناصر. وكان من بين ما حمله الرسل من الهدايا نسخة مكتوبة بالإغريقية من كتاب ديوسقوريديس في الطب «مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب، وكان الكتاب مكتوبًا بالإغريقي الذي هو اليوناني»[*]. ولما لم يكن في قرطبة من يعرف الإغريقية، فقد سأل الناصرُ الإمبراطورَ في أن يبعث إليه واحدًا من العارفين بها وباللاتينية، فأرسل إليه عام ٩٥١/٣٤٠ الراهب نيقولا؛ لكي يقوم بتحديد أنواع النبات التي ذكرها ديوسقوريديس - لا بترجمة الكتاب - فنشط في إنجاز ذلك العمل بمعاونة حسداي بن شبروط [٨] ذائع الصيت، ومحمد النباتي، ورجل يسمى البَسْباسي، وأبي عثمان الخَزّاز الملقب باليابسَة، ومحمد بن سعيد، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، وأبي عبد الله الصقلي، وكان عارفًا باليونانية يتحدث بها، وكان له إلمام بتركيب العقاقير[٩] ويبدو أن أهل الأندلس في ذلكَ الحين لم يكونوا يعرفون الترجمة العربية لكتاب ديوسقوريديس - التي صنعها اصطفن بن باسيل على أيام الخَليفة العباسي المتوكل - أو الترجمة الأخرى التي قام بها حسّان الناتلي أستاذ ابن سينا سنة ٣٧٤ / ٩٨٥[١٠].

وكان لظهور أهل الأندلس على كتاب ديوسقوريديس أثر حاسم في مجرى دراسات الطب والنبات في ذلك البلد، لومن دلائل هذا أن عبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم - وكان طبيبًا للمنصور بن أبي عامر - ألّف كتابًا مختصرًا سماه «كتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهِّلة والمقيئة»، وكتاب «الاكتفاء بالدواء من خواص

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، جـ٢، ص٤٦.

الأشياء»[*].

وقد ابتكر سعيد بن عبد ربه - ابن أخي صاحب «العقد»، ومولى هشام المؤيد - طريقة جديدة في علاج الحميات، [قال عنها ابن أبي أصيبعة: «كان مذهبه في مداواة الحميات أن يخلط بالمبردات شيئًا من [ ][*]، وله في ذلك مذهب جميل، ولم يخدم بالطب سلطانًا.

ذكر سليمان بن أيوب الفقيه أنه اعتلَّ بحمى طاولته، فعالجه ابن عبد ربه بحبوب مدوَّرة أوصاه - أن يتناول كل يوم منها واحدة، فلما فعل برئ»[*][11]. وكان أحمد وعمر - ابنا يونس بن أحمد الحراني[12] آنف الذكر - من الظاهرين في الصناعة الطبية، امتاز أولهما بالخبرة في تحضير الأدوية واشتهر أمر الثاني بالكحالة، ويُظن أنه هو الذي علَّم أبا القاسم الزهراوي طريقة استخراج ماء العين (الكتاراكتا) بواسطة إبرة. لوقد قال في حقهما أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي: «رَحَلا إلى المشرق في دولة الناصر، وأقاما هناك عشرة أعوام. ودخلا بغداد، وقرآ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابئ كتب جالينوس عَرْضًا، و خدما ابن وصيف في عمل علل العين. وانصرفا إلى الأندلس في دولة المستنصر بالله، وذلك في سنة ٩٦٢/٣٥١ فألحقهما بخدمته في الطب، واستخلصهما لنفسه من سائر أطباء وقته. ومات عمر فيها، وبقي أخوه أحمد أثيرًا عند الحكم إلى آخر أيامه، ثم ولاه هشام المؤيد بالله خطة الشُّرَط وخطة السوق. وكان يداوي

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، جـ٢، ص٤٦.

(*) بياض بالأصل.

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، جـ٢، ص٤٦.

العين مداواة نفيسة، وله في ذلك في قرطبة آثار عجبة»[*].

وأضاف ابن أبي أصيبعة أن المستنصر «أسكنهما مدينة الزهراء واستخلصهما لنفسه دون غيرها ممن كان في ذلك الوقت من الأطباء. ومات عمر وبقي أحمد مستخلَصًا، وأسكنه المستنصر في قصره بمدينة الزهراء. وكان لطيف المحل عنده، أمينًا، يُطْلِعه على العيال والكرائم. وكان عاقلاً عالمًا بما شاهد علاجه ورآه عيانًا بالمشرق، وتوجَّه عند المستنصر، وكان يصنع له الجوارشنات الحادّة العجيبة؛ لأن المستنصر كَانَ نَهِمًا في الأكل، فكانت تحدث له تخمة لذلك. وأفاد مالاً عظيمًا، وكان ألْكَنَ اللسان رديء الخط لا يقيم هجاء حروف كتابه. وكان بصيرًا بالأدوية وصانعا للأشربة والمعجونات ومعالجًا لما وقف عليه.

وذكر ابن جلجل أنه رأى له اثني عشر صبيًّا صقالبة طباخين للأشربة صنَّاغين للمعجونات بين يديه. وكان قد استأذن أمير المؤمنين المستنصر أن يعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى، فأباح له ذلك. وكان يداوي العين مداواة نفيسة، وله بقرطبة آثار في ذلك. وكان يواسى بعلمه الجارَ والصديق والمسكين والضيف. وولاَّه هشام المؤيد خطة الشرطة وخطة السوق، ومات بحمى الربيع وعلة الإسهال، وخلف ما قيمته أزيد من مائة ألف دينار»[*](١٣).

وأعظم نباتي ظهر في عصر الخلافة هو أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل(١٤) وكان طبيبًا لهشام المؤيد. وقد وضع مؤلفًا حسنًا «فسر [فيه] أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريديس العين زربي [*] وأفصح عن مكنونها وأوضح مستغلق

(*) صاعد: طبقات الأمم، ص١٢٤.

(*) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، جـ٢، ص٤١.

(*) نسبة إلى عين زرب، ولهذا يسمى Dioscorides Anzarbio.

مضمونها»[*]، وله كذلك مؤلَّف عن الترياق نبه فيه على أغاليط بعض الأطباء. وألف تاريخ الأطباء في خلافة هشام المؤيد، مما يدل على أن العلم كان قد بلغ درجة عظيمة من التقدم في الأندلس خلال القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) [١٥]. ولعريب بن سعد القرطبي كتاب يسمى «خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود» (مخطوط بمكتبة الإسكريال) وهو بحث طيب يتناول كل ما يتصل بالطفل. وجدير بنا أن نذكر التقويم الذي وضعه، وهو المسمى بـ «التقويم القرطبي» - وهو بالعربية واللاتينية معًا - إذ هو عظيم الفائدة في كل ما يتصل بالفلاحة (ف٦٥ب).

ف١٣٧- أبو القاسم الزهراوي. ابن وافد:

وأعظم أطباء ذلك العصر هو من غير شك أبو القاسم خلف الزهراوي[١٦](نسبة إلى مدينة الزهراء، وهو المعروف عند اللاتين باسم أبو لْكاسيس Abulcasis؛ ٣٢٤/ ٩٣٦- ١٠١٣/٤٠٣) وقد طار ذكره بين أهل الشرق والغرب بالبراعة في الجراحة. وكتابه المسمى بـ «التعريف لمن عجز عن التأليف» يُعتبر بحق موسوعة طبية، وقد ترجمه إلى اللاتينية جيراردو الكريموني[*] وسماه الْسَاهَارْ أَفَارْيُوس Acaravius أو Alsaharavius (تحريفان لاسم الزهراوي)، ونقله إلى العربية شَمْ طُبْ، وكَثُر اعتماد الناس عليه في العصور الوسطى. وقد طُبعت الترجمة اللاتينية لكتاب الزهراوي على مراحل: ففي عام ١٥١٩ طُبع منها جزء بعنوان «كتاب النظر والعمل» Liber theorocae et practice، وكان جزءٌ آخر قد طُبع وكثر استعماله منذ عام ١٤٧١ هو «كتاب الخادمين» Liber servitoris وموضوعه تحضير الأدوية المفردة، وقد انتفع به الناس كثيرًا.

(*) ابن أبي أصيبع: طبقات الأطباء، جـ٢، ص٤١.

(*) نسبة إلى كريمونا في إيطاليا، لا إلى قرمونة الأندلس.

أما الجزء الثلاثون من كتاب الزهراوي الذي نُشر في اللاتينية باسم «الجراحة» Chirurgia فقد كان أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله، وقد ارتفع به الزهراوي في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالنيوس. وهو يحوي رسوم الآلات الجراحية، وهو أول مؤلف جعل الجراحة علمًا قائمًا بذاته مستقلاً عن الطب وأقامها على أساس من العلم بالتشريح[١٧]. وكان يُنسب إليه كتاب في الصحة من تأليف ابن بُطلان.

ومن المذكورين من أطباء القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكتّاني[*] قال عنه صاعد: كان أخذ الطب عن عمه محمد بن الحسين وطبقته، وخدم به المنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفر، ثم انتقل إلى سرقسطة واستوطنها. وكان بصيرًا بالطب متقدمًا فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة، أخبرني عنه الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد عبد الكبير بن وافد اللخمي، أنه كان دقيق الذهن ذكي الخاطر جيد الفهم حسن التوليد والتُتيج؛ وكان ذا ثروة وغنى واسع، وتوفي قريبًا من سنة ٤٢٠ (١٠٢٩)، وقد قارب ثمانين سنة. وقرأت في بعض تآليفه قال: أخذت صناعة المنطق عن محمد بن عبدون الجبلي، وعمر بن يونس بن أحمد الحراني، وأحمد بن حفصون الفيلسوف، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم العاصمي النحوي، وأبي محمد عبد الله بن مسعود البَجّاني، ومحمد بن ميمون المعروف بمَرْكُوش، [و] أبي القاسم فَيْد[*] بن نجم، وسعيد بن فتحون السرقطي المعروف بالحمّار، وأبي الحارث الأسقف تلميذ ربيع بن زيد الأسقف الفيلسوف، وأبي مروان البجّاني [*]،

(*) في طبعة شيخو: الكِساني، وقد أخذ بهذه القراءة بلاشير في الترجمة الفرنسية لطبقات صاعد. انظر ص١٤٨ من هذه الترجمة.

(*) في الطبعات المصرية من طبقات صاعد: فند.

(*) في الطبعات المصرية: التجاني، وهو خطأ.

ومسلمة بن أحمد المجريطي[*]. وقد ألّف كتابًا عن الأدوية المفردة، ضاع فيما ضاع من الكتب[١٨].

ومنهم كذلك حامد بن سَمَجُون الذي ألّف كتابًا في العقاقير[١٩].

ولا نلقى خلال القرن الحادي عشر الميلادي إلا أطباء ونباتيين من طبقة تالية لمن ذكرنا، مثل محمد التميمي الطليطلي الذي ألف كتابًا في الطب (مخطوط بمكتبة الإسكريال) شرح فيه تشخيص الأمراض وأعراضها، وهو عظيم الفائدة شكلاً وموضوعًا، أي بسبب المنحى الذي انتحاه في تأليفه وصميم مادته نفسها والطريقة التي اتبعها في تعليم الطب عن طريق الممارسة؛ وابن وافد، وهو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد بن مهند اللخمي المسمى عند اللاتين بابن وِيفيث Eben Guefith (٣٨٨/٩٩٨-٤٦٦/١٠٧٤)[٢٠]، وكان وزيرًا لابن ذي النون صاحب طليلطة، وكان متحققًا بعلم الطب والعلاج. وكان من مذهبه أن يستعمل الأغذية ما أمكنه ذلك، فإذا لم تنجح لجأ إلى الأدوية المفردة قبل أن يلجأ إلى المركبة. وله كتب كثيرة في الأدوية والتجارب الطبية وطب العيون وما إلى ذلك. لقال عنه صاعد: «أحدُ أشراف أهل الأندلس وذوي السلف الصالح منهم والسالفة القديمة فيهم، عني عناية بالغة بقراءة كتب «جالينيوس» وتفهمها، ومطالعة كتب «أرسطاطاليس» وغيره من الفلاسفة.

(*) صاعد: طبقات الأمم، ص ١٢٥-١٢٦. وانظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، جـ٢، ص٤٥. وهناك كتاني آخر هو أبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكتّاني. كان طبيبًا للناصر والمستنصر، وهو عم أبي عبد الله هذا. انظر: صاعد: طبقات الأمم، ص ١٢٣؛ وابن أبي أصيبعة، جـ٢، ص٤٥، ويرد اسمه الكِنّاني أيضًا؛ وقد أخذ بهذه الصيغة بلاشير في الترجمة الفرنسية لصاعد؛ انظر ص ١٤٦.

وتمهَّر في علوم الأدوية المفردة؛ حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتابًا جليلاً لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب «ديوسقوريديس» وكتاب «جالينوس» المؤلفين في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب. وهو مشتمل على قريب من خمسمائة ورقة، وأخبرني عنه أنه عاني جمعه وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وما أودعه إياه من تفصيل قواها وتحديد درجاتها لقريباً من عشرين سنةً؛ حتى كمل موافقًا لغرضه مطابقا لبغيته.

له في الطب منزع لطيف ومذهب نبيل: وذلك أنه لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريبًا منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركَّبها ما وصل إلى التداوي بمفردها، فإن اضطر إلى المركب لم يُكثر التركيب، بل اقتصر على أقل ما يمكن منه. وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخوفة بأيسر العلاج وأقربه. وهو في وقتنا هذا حيٌّ مستوطن مدينة طليطلة. وأخبرني أنه ولد في ذي الحجة سَنَة ٣٩٨ (أغسطس ١٠٠٨)»[*].

ومنهم ابن حجاج القرطبي الذي وضع في الزراعة كتابًا أشار إليه ابن البيطار واستعمله ابن العوام؛ وأبو عبيد البكري الجغرافي، فقد وضع كتابًا عن أهم نباتات الأندلس وأشجارها.

ونذكر ممن اشتغل بالطب من يهود الأندلس أبا الوليد مروان بن جناح النحوي الفيلسوف، فقد كتب كتابًا مختصرًا عن العقاقير والموازين والأكيال؛ ويونس بن إسحاق[٢١] - بن بُكْلارِش - الذي كتب كتابًا في الطب سماه «المُستعيني»؛ لأنه ألفه للمستعين بن هود صاحب سرقسطة، وقد أورد فيه أسماء الأدوية بالسريانية

(*) صاعد: طبقات الأمم، ص١٢٨.

والفارسية واليونانية والعربية و«اللطينية» (هكذا بالأصل) والعجمية العامية التي كان يستعملها أهل الأندلس[٣٢].

وفيما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين (الخامس والسادس الهجريين) عاش في الأندلس نباتي واسع العلم نجهل اسمه، وقد خلف معجمًا بأسماء النبات (نشر آسين بلاثيوس مستخرجًا منه على هيئة معجم عنوانه:

Closaroi de voces romances registradas por un botanico anonino hispano - musulman de los siglos XL y XLL

وهذا المعجم يمدنا بمعلومات ذات أهمية كبرى عن نبات الأندلس وجغرافيته وما كان لأهله من تقاليد شعبية؛ هذا إلى ما فيه من الفائدة لدراسة عجمية أهل الأندلس في أدوارها الأولى[٣٣].

ف١٣٨- ابن رشد . بنو زهر . ابن العوام

بلغ الطبُّ العربي أوجَهُ في إسبانيا خلال القرن الثاني عشر الميلادي، أي في ذلك العصر الذي جمع الفلاسفة فيه بين الفلسفة والطب، كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (ف١٠٤)، وابن باجة الذي اشترك مع سفيان الأندلسي في تأليف «كتاب التجارب»، وقد استدركا فيه على وافد الطليطلي ما فاته في كتابه عن الأدوية المفردة[٣٤] وكذلك أبو الوليد بن رشد، الذي تداول الناس كتابه «الكليات» واستعملوه في خلال العصور الوسطى كلها، إذا إنه يتناول التشريح ووظائف الأعضاء والأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية وحفظ الصحة والعلاج؛ وكان لأبي الوليد ابنٌ طبيبٌ كذلك.

ولإليك فقرة من مقدمة «الكليات» تعرفنا بمنهج ابن رشد في تأليفه

والموضوعات التي تناولها فيها:

«إن صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة، يُلتمس بها حفظ بدن الإنسان وإبطال المرض، وذلك أقصى ما يمكن في واحد واحد من الأبدان، فإن هذه الصناعة ليس غايتها أن تبرئ ولا بد، بل أن تفعل ما يجب بالمقدار الذي يجب وفي الوقت الذي يجب، ثم تنتظر في حصول غايتها كالحال في صناعة الملاحة وقَوْد الجيوش.

«ولما كانت الصنائع الفاعلة - بما هي صنائع فاعلة - تشتمل على ثلاثة أشياء: **أحدها:** معرفة موضوعاتها، **والثاني:** معرفة الغايات المطلوب تحصيلها في تلك الموضوعات، **والثالث:** معرفة الآلات التي تحصل بها تلك الغايات في تلك الموضوعات، انقسمت - باضطرار - صناعة الطب أولاً إلى هذه الأقسام الثلاثة: **فالقسم الأول:** الذي هو معرفة الموضوعات، يُعرف فيه الأعضاء التي يتركب منها بدن الإنسان البسيطة والمركبة. ولما كانت الغاية المطلوبة هنا صنفين: حفظ الصحة وإزالة المرض، انقسم هذا الجزء إلى قسمين: **أحدهما:** يُعرف فيه ما هي الصحة لجميع ما به تتقوم، وهي الأسباب الأربعة التي هي: العنصر والصورة والفاعل والغاية وجميع لواحقها، **والقسم الثاني:** يعرف فيه ما هو المرض أيضا بجميع أسبابه ولواحقه. ولما كان أيضًا ليس في معرفة مائية الصحة والمرض كفاية في حفظ هذه وإزالة هذا، انقسم هذان الجزءان أيضًا إلى جزءين آخرين: **أحدهما:** يعرف فيه كيف تحفظ الصحة، **والثاني:** كيف يبطل المرض.

«ولما كانت الصحة أيضًا والمرض ليسا بَيِّنين بأنفسهما من أول الأمر، احتيج أيضًا إلى تعرف العلامات الصحية والمرضية، وصار هذا أيضًا أحد أجزاء هذه الصناعة. وإذا كان ذلك كذلك، فباضطرار ما انقسمت هذه الصناعة إلى سبعة أجزاء عظمى:

الجزء الأول: يذكر فيه أعضاء الإنسان التي شوهدت بالحس، البسيطة والمركبة.

والثاني: تعرف فيه الصحة وأنواعها ولواحقها.

والثالث: المرض وأنواعه وأعراضه.

والرابع: العلامات الصحية والمرضية.

والخامس: الآلات، وهي الأغذية والأدوية.

والسادس: الوجه في حفظ الصحة.

والسابع: الحيلة في إزالة المرض.

«ونحن نقصد في ترتيبها ههنا إلى هذه القسمة، إذ كانت هي القسمة الذاتية لها».

بيد أن زعامة الطب في ذلك العصر عقدت بلواء بني زهر[٢٥]: أبي مروان عبد الملك بن زهر وابنه أبي العلاء بن زهر المتوفى سنة ١١٣١/٥٢٥، ثم أعظمهم جميعًا أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، الذي توفي في مراكش سنة ١١٦٢/٥٥٧ ونقل جثمانه بعد ذلك إلى إشبيلية؛ حيث دفن في مقبرة بني زهر، وكان في خدمة خلفاء الموحدين وكان يأنف من الفصد والجراحات (على الرغم من أنه لجأ إلى الجراحة في بعض الأحيان ونجح فيها)، وكان يرى كذلك أنه لا ينبغي للطبيب أن يقوم بتحضير الأدوية، فسبق بهذا إلى مفهوم الطب الحديث من فصل الجراحة عن الطب الباطني وعن الصيدلة. وصرف همه كله إلى الطب الباطني، فألف فيه كتاب «الاقتصاد» وهو دراسة للطب عامة، وكتب كتابًا آخر في الأغذية والأدوية، وكتابًا ثالثًا يسمى «التيسير» أهداه إلى ابن رشد، وهو كتاب تتجلى فيه شخصية ابن زهر بكل وضوح، ويعتبر خير ما ألف العرب في الطب العملي، فقد تحرَّر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية، وهو يأخذ فيه بما تؤدي إليه الملاحظة المباشرة، مفضلاً ذلك على متابعة جالينوس وغيره من القدماء[٢٦]. وقد عهد أبو

يعقوب الموحدي خليفة الموحدين إلى أبي بكر محمد بن أبي مروان هذا (١١١٣/٥٠٦ -١١٩٩/٥٩٥) في أن يجمع كتب الفلسفة.

ف١٣٩- ابو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي

(من أهل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي)(*). ذكره ابن البيطار أكثر من مائتي مرة في كتبه. ألف الغافقي كتاب «الأدوية المفردة» عن العقاقير والأعشاب، وقد ضاع أصله ولم يبقَ لنا إلا مختصر له عمله أبو الفرج بن العبري (بارهيبرايوس المتوفى سنة ١٢٨٦/٦٨٤). وقد نشر هذا المختصر ماكس مايرهوف وجورج صبحي في القاهرة (سنتي ١٩٣٢و ١٩٣٣).(*). ويرى مايرهوف أن الغافقي «أعلم أطباء المسلمين في العصور الوسطى بالأدوية والأعشاب»(٢٧). وقد قام هذا العالم

(*) ذهب فستنفلد إلى أنه مات سنة ١١٦٤/٥٥٩، وتساءل مايرهف وصبحي عن السند الذي اعتمد عليه فستنفلد ليقرر هذا.

Cf: WESTENFELD, Gesch, der arabischen Aerzte. (Goerringen, 1840) p. 98.

M. MEYERHOF and G.P. SOBHY. An abridged version of the Book of Simple Drugs. (Cairo, 1932)p.32.

(*) رجعت إلى كتاب الدكتورين مايرهوف وصبحي المشار إليه هنا وفي الهامش السابق، فتبينت أن بالنشا قد اختصر كلامهما اختصارًا أضاع جزءًا كبيرًا من قيمته، كما ترى في العبارة التي بدأ بها كلامه عن الغافقي. أما ما قاله المؤلفان فهو أن ابن البيطار لم يذكر الغافقي مائتيْ مرة مجرد ذكر، بل نقل عنه في أكثر من مائتي موضع؛ بل تبينا أن كتاب ابن البيطار إن هو إلا نقل لكتاب الغافقي برمته مع زيادة أشياء قليلة نقلها عن عشّابين آخرين، مثل الإدريسي وأبي العباس النباتي.

CF: MEYERHOF and SOBHY, OP.cit. pp. 31-33.

MEYERHOF : Esquisse d'histoire de la Pharnacologie chez ges musimans d' Espadne. AL-Andalrs, vol. 111m 1935, fase. 1,pp.17-19.

الألماني بترجمة مؤلف الغافقي بالغ الغرابة المعروف «بالمرشد في الكحل»(*)(٢٨).

وإليك مادة من «منتخب كتاب جامع المفردات «للغافقي، وقد انتخبه أبو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبري (بارهيبرايوس)، نوردها بشروح ماكس مايرهوف وجورج صبحي عليها، ليتبين القارئ مكانة الغافقي في علم الأدوية المفردة، ومدى اطلاعه على أصوله وأسلوبه في التأليف:

«إشخيص: هو شكوكة العلك(*)، وهو باليونانية خامالاون [كلمة يونانية] أي حرباء، وإنما سمى خامالاون لاختلاف الورق، فإنها قد توجد خضراء جداً، وإلى البياض، وإلى لون السماء، وإلى حمرة الدم، على قدر اختلاف الأماكن التي تنبت فيها. خمالاون لوقس (Leukos Khamaileon) [كلمة باللغة اليونانية] أي الأبيض، (Chamaleon) [كلمة باللغة اليونانية] وقد يسمى إقيسا (ixia) [كلمة باللغة اليونانية]؛ لأنه نبات يوجد عند أصله في بعض المواضع إقسوس (ixos) [كلمة باللغة اليونانية] وهو الدبق (*)، فاشتق من إقسيوس إقيسا [كلمة باللغة اليونانية] ومعناه

(*) لم أعثر على ما يزيد هذه العبارة الأخيرة. ويبدو أن الأمر قد أشكل على بالنثيا أثناء قراءة البحث الذي أشرنا إليه لمايرهوف وصبحي، فإنهما يقولان بوضوح (ص٣٢من الجزء الأول) أن هناك غافقيًا آخر، يسمى محمد بن قَسُوم بن أسلم الغافقي، صاحب كتاب كبير عن طب العيون يسمى «مرشد الكحل»؛ وأضاف مايرهوف في الهامش رقم ٢ من نفس الصفحة، أن صديقًا له طلب إليه أن يترجم الأجزاء المهمة من هذا الكتاب لتقرأ في المؤتمر الدولي الرمدي في مدريد سنة ١٩٣٣. وقد أشار مايرهوف إلى أنه قام بهذا العمل ونشره. ومن الطريف أن بالنثيا ذكر ابن قسُوم الغافقي وكتابه «مرشد الكحل» في الطبعة الأولى من كتابه (ص٢٦٩) وفرّق بينه وبين أبي جعفر الغافقي.

(*) العلك هو البلوط، وشوكه العلك بالإنجليزية pine thistle وباللاتينيةauracglis echinops، وذهب ابن البيطار إلى أن العلك لفظ من عجمية الأندلس.

(*) ترجمها مايرهوف وصبحي viscous matter.

الدبقي. يشبه ورق الشوكة المسماة بالشام العَكّوب(*) والشوك المسمى سقولومس(*) [كلمة باللغة اليونانية] وينبتُ في أوسطه شوكة كشوك القنفذ البحري أو كشوك القينارا [Kinara] [كلمة باللغة اليونانية]، وله زهر فُرْفيري مثل الشعر وثمر كالقرطم. وأصله في الأرض الثَّرِية غليظ وفي الجبلية دقيق. ولون داخله أبيض، وفي رائحته شيء من طيب وكراهة، وهو حلو. إذا شُرِب أصله أخرج حب القرع والدود، وإذا عجن بالماء والزيت قتل الكلاب والخنازير والفأر، وشربه ينفع من نهش الهوام.

(دج) (*): " خمالاون ماكس(*)(Khamaileon melas)[كلمة باللغة اليونانية] أي أسود، ورقه أيضًا كورق الشوك المسمى سقولومس (Skolymos) [كلمة باللغة اليونانية) إلا أنه أصغر وأدق منه، و فيه حمرة كحمرة الدم، ساقه في غلظ الأصبع، طولها شبر، ولونها إلى حمرة الدم، عليها إكليل وزهر مشوك دقاق، لونه شبيه بزهر النبات المسمى أوقينثوس (hyakinthos) [كلمة باللغة اليونانية] هُيَا كِنْثوس، وفيه نقط، وأصلٌ أسود غليظ كثيف، إذا مُضغ لذع اللسان. ينبت في الصحاري اليابسة والتلال والسواحل»(*).

(*) علق مايرهوف وصبحي على هذا اللفظ بعبارة Diose: Echinops the globe thistle,.

(*) Scolymus hisp. Golden thistle.

(*) كذا في الأصل المطبوع، والأغلب أنها مالس، لأن كتابتها باليونانية تقرأ.(خما يلبسون ميلاّس).

(*) كذا في الأصل المطبوع، والأغلب أنها مالس، لأن كتابتها باليونانية تقرأ.(خما يلبسون ميلاّس).

(*) انظر . منتخب جامع المفردات لأحمد بن محمد بن خليد الغافقي، المتوفى سنة ٥٦٠/١١٦٤. انتخبه أبو الفرج جريجوريوس المعروف بابن العبري، المتوفى سنة ٦٨٤/١٢٨٥. نشره مع ترجمته الإنجليزية وشروحات ماكس مايرهوف وجورج صبحي (القاهرة، بدون تاريخ) ص ٢٣، والترجمة الإنجليزية:

The abridged version of the book of drugs.....p.25.

وينص ابن البيطار كثيرًا على كتاب في الأدوية المفردة للإدريسي الجغرافي المعروف (٤٩٣/١١٠٠-٥٦١/١١٦٦)، يسمى «كتاب الجامع لصفات النبات» وكان يُظن أنه قد ضاع؛ حتى عثر عليه مايرهوف وقام بدراسته في سنة ١٩٣٠ (مخطوط رقم ٣٦١٠ مكتبة الفاتح في استامبول)(*) وهذا الكتاب يعتمد اعتمادًا تامًا على كتاب ديوسقوريديس آنف الذكر.

وقد كان الفيلسوف المعروف أبو عمران موسى بن ميمون (مايمونيدس عند اللاتين) مبرزًا في صناعة الطب أيضًا. وكتابه المسمى «شرح أسماء العقار» ذو فائدة جليلة، وقد نشره مايرهوف في القاهرة سنة ١٩٤٠ [على أساس المخطوط رقم ٣٧١١، آيا صوفيا](*).

ومن أعلام النباتيين الأندلسيين أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام صاحب كتاب «الفلاحة»، (نشر نصه وترجمته إلى الإسبانية بانكو يري J.A. Banqueri في مدريد سنة ١٨٠٢، وترجمه إلى الفرنسية كليمان موليه، ونشره في باريس فيما بين عامي ١٨٦٤- ١٨٦٧)(*). وهذا الكتاب يعطينا فكرة عن ازدهار الزراعة في الأندلس الإسلامي (وقد كان المؤلف نفسه من المشتغلين بالزراعة في ناحية إشبيلية)، وهو أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة، وكان له أثر كبير في كتابات ج. أ. دهررًا .G.A. de Herrera لوإليك فقرات من مقدمة «كتاب الفلاحة» تدل على أسلوبه ومنهجه العلمي في تأليفه:

(*) Cf:MEYERHOF and SOBHY, op. cit,p.47.

(*) CF: MEYERHOF, Esquisse.....p 27.

(*) CF: le Liveer de lagricultuer d'Ibn al-Awam. Trad. P.j.j. clement- MULLET. Paris,1884-1867, 3vois.

قال مؤلفه الشيخ الفاضل أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوّام - عفا الله عنه -:

الحمد الله رب العالمين؛ وأما بعد، فإني لما قرأت كتب فلاحة المسلمين الأندلسيين ولكثيرًا] من كتب غيرهم القدماء المقدَّمين في صنعة فلاحة الأرضين، المُضَمَّنة كيفية العمل في الزراعة والغراسة ولواحق ذلك، وما يتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان، وما وصل إليَّ منها، وقفت على ما نصوه فيه، ونقلت من عيونها إلى هذا التأليف ما إن نظر فيه، وحفظ أبوابه وفصوله معانيه، من يريد أن يتخذ هذا الفن صنعة يصل بها بحول الله إلى معاشه، ويستعين بها على قوته وقوت عياله وأطفاله، ووجد فيه حاجته.

.....

اعلم وفقنا الله وإياك أني قسمت هذا التأليف على خمسة وثلاثين بابًا، وضمنت الأبواب من هذا الفن أنواعًا تقف عليها إن شاء الله تعالى وبه أستعين وعليه أتوكل.

واعتمدتُ على ما تضمنه كتاب الشيخ الفقيه الإمام أبو عمر بن حجاج - رحمه الله - المسمى «بالمقنع»، وهو الذي ألفه سنة ٤٦٦ - وهو مبنى على آراء أجِلّة الفلاحين والمتكلمين - نقل فيه نصوص أقوالهم وعزاها إليهم وعددهم ثلاثون رجلاً. والمقدمون منهم يونيوس (Junius Moderatus Columela) وباورن (Varron)، ولاقطيوس (Lecacio)، ويوقنصوس(Yucansus). وطارطيوس (Tartius)، وبتدون (Betodun)، وبرَيعايوس (Bariaius)، وديماقراطيس الرومي (Democritus)، وكَسِينوس (Casianus Basus Scolalsticus) والمتأخرون في زمانهم، منهم الرازي وإسحاق بن سليمان وثابت بن قرة وأبو حنيفة الدينوي وغيرهم ممن لم نُسَمِّه.

واعتمدت أيضًا مع ذلك على ما استحسنته مما تضمنته الكتب المذكورة بعد هذا، منها كتاب «الفلاحة النبطية» تأليف قوثامي(*)، وهو مبني على أقوال أجلة الحكماء وغيرهم، وذكر فيه أسماءهم وعددهم، منهم آدم وصغريت ونغبوشاد وأخنوخا وماسي ودونا وطامتري وغيرهم، وربما اختصرت ذكر هذا الكتاب وأثبتُّ له علامة وهي «ط»؛ وعلى كتاب الشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن البَصَّال الأندلسي - رحمه الله - وهو المبنى على تجاريه، وعلامته على وجه الاختصار هي «ص»؛ وعلى كتاب الشيخ الحكيم بن الخير الإشبيلي - رحمه الله - وهو مبنى على آراء جماعة من الحُكما والفلاحين وعلى تجاريه، وعلامته «خ»؛ وكتاب الحاج الغرناطي وعلامته «غ»......(*).

وإليك فقرة أخرى من الكتاب يتحدث فيها عن الكمثرى:

«فصل: وأما صفة العمل في غراسة شجر الكمثرى الذي يسميه العامة الأجاص، قال خ: هو نوعان: جبلي وبستاني، وهو أنواع: منه السكري، والذكري، والقرعي، والسراجي، غير ذلك.

وفي ق: من الكمثرى حلو ومنه مر، ومنه قليل الماء وكثير الماء، ومنه كبير ومتوسط وصغير.

ومن كتاب أبي حجاج - رحمه الله - قال يونيوس: إن جنس الكمثرى يحب المواضع الباردة والكثيرة المياه المخصبة. وله أنواع كثيرة، ويغرس على فنون من فروع تنتزع من الشجر، ويغرس أيضًا أَنْقَالُ الجلُّوب، ويغرس أيضًا وَتَده، وقد

(*) كذا في الأصل، والمعروف أن مؤلف كتاب «الفلاحة النبطية» هو ابن وَحْشِيّة.

(*) أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي، كتاب الفلاحة، طبعة منكيري، مدريد ١٨٠٢، جـ١، ص٧-١١.

يمكن غرس حب ثمره.

قَالَ يونيوس: ومن الناس من يفعل فعلاً أجود من هذا كله، وَذَلِكَ أنهم يُطَعِّمونه أكثر مما يغرسونه، فيحولون شجر كمّثرى بَرِّي بأصوله من مواضع الغابات، ويغرسونها على ما وصفنا، حَتَّى إِذَا استحكمت هذه الغروس يطعمونها بأجناس الّذي يريدون.

قال قروراطِقوس : إذا غرست الكمثرى في البعل الذي لا سقى له فاغرسه أول الخريف، وإن غرسته تحت سَقْي فاغرسه في ثمانية أيام ماضية من شباط (فبراير) إلى نصف أذار (مارس). يحب شجرُهُ الأمكنةَ الباردة الرطبة والبرودة، وليس هو مما يحب الأرض الصلبة.

ومن غيره: يوافق الكمثرى الأرض الطيبة والمُوَدَّكة المرتفعة والباردة المُمَرَّخة برمل يسير. ويصلح في الأرض السهلة غير النَّزِحَة ولا السِّبْخَة، وينافر الأرض السودا والخنادق، وقيل لا توافقه الأرض الحَرْشا؛ وقيل بل توافقه. وقال ديمقراطيس: تُنَقّي الحفرة التي تغرسه فيها من الحصى والأشيا الجاسية، وتوضع الغرس فيها. ويلقى عليه تراب قد غُربل وُيسقى بالماء، قالوا: ويُتخذ من القضبان النابتة عند أصوله وفي عروقه أيضًا مقْتَلَعة بعروقها ومُكَبَّسة بمواضعها، ثم تقلع؛ ومن حب ثمره أيضًا، ومن أوتاده، وليكن طول الوتد منها نحو ثلاثة أشبار، ومن ملوخه. يغرس ذلك في يَنَيْر وفي فبرير على أمهات السواقي وفي أرض سواها لا تخلو منها رطوبة السقي بالماء ولا بد، ولا يغفل عن سقيها، وإن استمر جريُ الماء عليها دايما من غير أن يبقى في أرضها فذلك أجود لها. ويزرع حب ثمره في الظروف، وهو من الزرايع الضعاف. ويغرس نُقله في حفرة عمقها نحو أربعة أشبار وأزيد، على كِبَر قدر النقلة. وقيل: يجعل في الحفرة عند غراسة النقلة خاصة نَدِية، ثم تُطمر غراستها بتراب وجه الأرض، ووقتُ غراسة النوع البستاني منه أنه إن غُرس من أول فبراير إلى أول يوم من

أبريل فإنه يكون أقرب إلى النجابة والعلق... »[*].

ف١٤٠-ابن البيطار

ونذكر ممن ظهر في عصور تقلص سلطان المسلمين من الجزيرة أبا الحجاج بن مُرَاطِر [*] (من أهل القرن الثالث عشر)، وكان يطبب أبا يعقوب يوسف خليفة الموحِّدين؛ وابن لُيُون من أهل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، وهو غرناطي وقد نظم قصيدة في الزراعة وفلاحة البساتين، وأبا العباس أحمد بن محمد الملقب بابن الرومية وقد ولد بعد سنة ١١٦٥/٥٦٠، وهو من أهل إشبيلية وكان يلقب بالنباتي، وقد طاف بنواحي المغرب والمشرق وسجل ملاحظاته ومشاهداته في «رحلته». وكان أول من درس النبات بطريقة مباشرة، ولم يقتصر على النظر إليه على أنه مجرد عُشب يُتداوى به[٢٩]، وكان ابن البيطار أحد تلاميذه.

وكان ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد[٣٠]، أعظم علماء النبات في المشرق في عصره. وأصله من مالقة (وُلد ١١٩٧/٥٩٣)

وسكن إشبيلية وتجول في نواحي المغرب وآسيا الصغرى والشام ودخل في خدمة

(*) أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي، كتاب الفلاحة، طبعة منكيري، مدريد ١٨٠٢، جـ١، ص. ٣٦-٢٦٢.

(*) لم أستطع تحقيق هذا الاسم، ولم يتعرف عليه أحد ممن سألتهم عنه. وقد وجدتُ عند ابن أبي أصيبعة أن الذي كان يطبب أبا يعقوب يوسف وأبا يوسف يعقوب المنصور الموحديْن، هو أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي (طبقات الأطباء، جـ٢، ص٩). وذكر ابن أبي أصيبعة طبيبًا ثانيًا لهذا الأخير هو أبو جعفر بن غزال (طبقات الأطباء، جـ٢، ص٨٠). وأبو يعقوب المنصور ليس من أهل القرن الثالث عشر الميلادي على كل حال، مما يرجح الظن بأنَّ عبارة المؤلف هنا تحتاج إلى تصويب.

الملك الكامل(*) في مصر، وتوفي في دمشق سنة ١٢٤٨/٦٤٥، وكتابه الرئيسي هو «كتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» (طُبع في بولاق في أربعة مجلدات سنة ١٩٧٤/١٢٩١، وترجمه إلى الفرنسية (كليرك). وهو معجم أبجدي للأغذية والأدوية، وهو أكمل ما ألف العرب في ذلك الباب وأكثره تفصيلاً، وقد اعتمد في تأليفه على كتب كثيرة لمؤلفين سابقين عليه من أمثال ابن جلجل والغافقي، وهو يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع فيها كل ما ذكره سابقوه من اليونان والعرب عن الأدوية، وزاد عليهم بثلاثمائة دواء لم يشر إليها أحد قبله. ومن كتبه الجليلة الأخرى «المغني» في الأدوية المفردة؛ وهو يتحدث فيه عن الأعشاب من وجهة النظر العلاجية فحسب، لا من ناحية التاريخ الطبيعي.

لهذا، وابن البيطار أستاذ ابن أبي أصيبعة صاحب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وقد لقيه أول مرة في دمشق، وقال عنه في سياق ترجمته له: «فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته شيئًا كثيرًا، وكان لا يذكر دواءً في جوابه لمن يسأله إلا ويعيّن في أي مكان هو من كتب ديوسقوريديس، وجالينوس، وفي أي عدد هو في الأدوية المذكور في تلك المقالة، وكان ثقةً فيما ينقله حجةً للجميع. سافرَ مماثلا لبلينوس وغيره من الحكما إلى بلاد الأغارقة والشرق وأقصى بلاد الروم. وأخذ فن النبات عن جماعة حكما مشهورين، وكان ذكيًّا فطنًا. وكان بمصر رئيسا على الحكما وساير العشّابين. ثم خدم الملك الكامل وجعله عنده مقدمًا في دمشق، حيث مات سنة ٦٤٦(١٢٤٨). وله «كتاب المغني في الطب»، و«كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة»، و«كتاب الأدوية المفردة» وهو جيد لم يصنف مثله قطُّ....»

وقال ابن البيطار في فاتحة كتابه يتحدث عن منهجه:

(*) في الأصل العادل والتصويب من «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، جـ٢، ص١٣٣.

«.....وبعد، فإنه لما رُسم بالأوامر المطاعة الملكية الصالحية النجمية، بوضع كتاب في الأدوية المفردة، تُذكر فيه ماهيتها وقُواها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها، والمقدار المستعمل من خراجها أو عصارتها أو طبخها والبدل منها عند عدمها.. جمعتُ هذا الكتاب في القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار، عند الاحتياج إليها في ليل كان أو نهار، لو مضاف إلى ذلك أذكر ما ينتفع به الناس لمن شعار ودثار. واستوعبت فيه جميع ما في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديوسقوريديس بنصه، وكذا فعلت أيضًا بجميع ما أورده الفاضل جلينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه، ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية ما لم يذكراه، ووصفت عن ثقاة المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه، وأسندت - في جميع ذلكَ - الأقوال إلى قايلها، وعرَّفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها. واختصصت بما تم لي به الاستبداد، وتوضح لي القول ووضح عندي الاعتماد.

الغرض الأول: صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرِّره عن المتأخرين، فما صح عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لديَّ بالخُبْر لا الخَبَر أدخرته كنزًا سريًّا، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيًّا.

والغرض الثاني: وما كان مخالفًا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق، أو أنَّ ناقله أو قايله، عدلاً فيه عن سَوِيِّ الطريق نبذتُه ظِهريًّا وهجرته مليًّا، وقلت لناقله أو أو قايله: «لقد جيتَ شيًّا فريًّا» ولم أحابِ في ذلكَ قديمًا لعتقه، ولا محدثًا اعتمد غيري على صدقه.

الغرض الثالث: ترك التكرار حسب الإمكان، إلا فيما تمس الحاجة إليه لزيادة معنًى وتبيان.

الرابع: تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مُقَفًّى، ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عَنَا.

الخامس: التنبيه على كل دواء واقع فيه وهم أو غلط متقدم أو متأخر؛ لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل، واعتمادي على التجربة والمشاهدة حسبما ذكرت قبل.

السادس: في تسمية الأدوية بساير اللغات المتباينة في السمات، مع أني لم أذكر فيه ترجمة دواء إلا وفيه صنعة مذكورة أو تجربة مشهورة. وذكرت كثيرًا منها بما يُعرف به في الأماكن التي تنسب إليها الأدوية المسطورة، كالألفاظ البربرية واللاطينية - وهي أعجمية الأندلس - إذا كانت مشهورة عندنا جارية في معظم كتبنا.

وقيَّدت ما يجب تقييده بالضبط وبالشكل وبالنقط تقييدًا يؤمن معه من التصحيف، ويسلم قاريه من التبديل والتحريف. إذ كان أكثر الوهم والغلط الداخل على الناظرين في الصحف إنما هو من تصحيفهم لم يَقْرُونه أو سهو الورَّاقين فيما يكتبونه.

وسميته بـ لجامع» لكونه جمع بين الدوا والغذا، واحتوى على الغرض المقصود مع الإنجاز والاستقصا. وهذا حين أبتدي، وبالله أستعين وأهتدي.. »(*)(٣١).

(*) كتاب الجامع الكبير في الأدوية المفردة لابن البيطار، مخطوط رقم ١٣٣٤ في فهرس الغزيري:

Cf: MICHAELIS GASIEI Bibliotheca Arabico- Hispana Escueialensis (Matriri MDCCLX)1,279- 280.

ولا بد من إشارة خاصة إلى عبد الله بن صالح[٣٢]، معاصر أبي العباس بن الرومية وأحد أساتذة ابن البيطار، وكان من أجلاء النباتيّين، وأبي جعفر بن خاتمة صاحب كتاب «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» الذي وصف فيه وباء سنة ١٣٤٨/٧٤٨. ومحمد بن السَّرَّاج[٣٣] (١٢٥٦/٦٥٣-١٣٢٩/٧٢٩)، [وقد عاش في غرناطة زمنًا ثم هاجر إلى مراكش، ووضع في الطب والأعشاب كتبًا كثيرة لم يبقَ منها شيء]. ولسان الدين بن الخطيب الوزير الكاتب المؤرِّخ (ف٨١)، إذ إنه تميَّز في العلم والطب كذلك، وألف في ذلك العلم كتابًا من جزءين (درس فيهما الأمراض من الوجهتين العامة والخاصة والحميات والجراحة وما إلى ذلك)، ويتكشف لنا ابن الخطيب في هذا الكتاب عن فهم عظيم وعلم واسع[٣٤].